خطبة صلاة الجمعة 24/10/2014 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(درسٌ من الهجرة)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء 100].

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: مُراغَماً أَيْ: مُتَحَوَّلًا يَتَحَوَّلُ إِلَيْهِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مُتَزَحْزِحًا عَمَّا يَكْرَهُ.

عن عَبْد اللَّهِ بْن حُبْشي: أن النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سئل: أي الأعمال أفضل؟ قال: «**إيمانٌ لا شكَّ فيه، وجهادٌ لا غلولَ فيه، وحجٌّ مبرور**»، قيل: فأي الصلاة أفضل؟ قال: «**طول القنوت**»، قيل: فأي الصدقة أفضل؟ قال: «**جهدُ المُقِل**»، قيل: فأي الهجرة أفضل قال: «**من هجر ما حرم اللَّه عليه**» [أحمد].

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ**» [البخاري]

وفي حديث ابن ماجه بسنده عن فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «**الْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ**».

أيها الإخوة:

أجمع المسلمون على عظيم حدث الهجرة في التاريخ الإسلامي فجعلوه مرجع تاريخهم.

كان سيدُنا عمر يكتب في خلافته للولاة الكتب، يقول فيها: حصل هذا في شعبان، حصلَ هذا في رمضان، حصل هذا في شوال؛ فتكتبُ الولاةُ الأمراء العمال لعمر: إننا لا نفهم منك، أيَّ شوالٍ تقصدُ؟ أيَّ شعبان؟ فلو جعلْتَ لنا شيئاً نفيءُ إليه نؤرخ.

فاجتمع رضي الله عنه مع الصحابة وأهل الرأي والمشورة، ورأوا أن يختاروا حدثاً يؤرِّخون به من ثلاثة أمور: مولدُ النبي صلى الله عليه وسلم، وهجرتُه، ووفاته، فأعرضوا عن المولد والوفاة واختاروا الهجرة. رأوها يوماً فرَّق اللهُ به بين الحق والباطل، وأقام بعده دولةَ الإسلام.

ثم أجمعَ على اختيارهم المسلمون.

بل إنَّ العلماءَ جعلوا من حدث الهجرة معياراً لقسمة القرآن إلى مكي ومدني، فأنتم تعلمون -أيها الإخوة- أنَّ سور القرآن نوعان: (مكية ومدنية) والقول المعتمدُ في معنى المكيِّ هو ما نزل قبل الهجرة، وفي معنى المدني ما نزل بعدها.

وفي هجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام دروسٌ كثيرةٌ -أيها الإخوة- سأعرضُ في خطبة اليوم لدرسٍ واحدٍ منها عنوانه: **(المؤمنُ مبتلىً وعليه أن ينجو أولَ ما ينجو بدينه)**.

فها هو صلى الله عليه وسلم -وهو مَنْ هو صلواتُ ربي وسلامه عليه- أقربُ الخلق إلى الله، وأحظاهم عنده، وأوفرهم حظاً لديه، يُبتلَى بإخراجِه من بلدهِ التي أحبَّ ودارِه التي أَلِفَ، وأهلِه وناسِه وعشيرته.

(ففي مكة البلد الأمين، قضى صلى الله عليه وسلم طفولتَه وصباه، وشبابَه وكهولتَه وشطراً كبيراً من شيخوخته، وله فيه ذكرياتٌ عزيزةٌ، وهذه المروج التي كان يخرجُ إليها يرعى فيها الغنم في شبابه، أصبحَتْ جزءاً من حياته لا يستطيع مفارقتها بسهولة، وإن ذكرى زواجه بالسيدة خديجة رضي الله عنها وما قضاه معها من أيامٍ طويلةٍ وجميلة لا تزال ماثلةً أمامَ عينيه، وإنه صلى الله عليه وسلم لَيَذكر يومَ اشتراكِه في بناء الكعبة المشرفة، ويومَ رضيَه المتخاصمون حكماً يُنهِي بقضائه ما نَشَبَ بينهم من نزاعٍ.

إنه يتذكَّرُ كلَّ هذا فيجدُ نفسَه مشدوداً إلى مكة برباطٍ وثيقٍ، ويذكرُ حُبَّ قومه له وإعجابهم به، وتسميتهم له بالصادق الأمين فترتاحُ نفسه، ويطمئنُّ قلبُه، ولكنْ ما بالهم الآن يتآمرون عليه، أوَليس هو هو؟ ما الذي حدثَ حتى يحاولوا قتله؟ ماذا جرى حتى يتربصوا به الدوائر؟.

ويتذكر صلى الله عليه وسلم كلمةَ ورقة بن نوفل: (ليتني أكونُ حياً إذ يخرجُك قومُك) ويتذكر سؤالَه له: «**أوَمخرجيَّ هم؟**» وهو أقرب إلى الاستنكار منه إلى الاستفهام، ويجيبُ ورقة إجابةَ الواثق

المتأكد: (نعم، لم يأتِ رجلٌ قطُّ بمثل ما جئتَ به إلا عُوْديَ، وإنْ يدركني يومُك أنصركَ نصراً مؤزَّرا).
[عن كتاب: الهجرة النبوية دراسة وتحليل، لمحمد السيد الوكيل]

ويلتفتُ النبي صلى الله عليه وسلم إلى مكة يوم إخراجه منها قائلاً: «عَلِمْتُ أَنَّكِ خَيْرُ أَرْضِ اللهِ، وَأَحَبُّ الْأَرْضِ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَوْلَا أَنَّ أَهْلَكِ أَخْرَجُونِي مِنْكِ مَا خَرَجْتُ» [أحمد]

ومع كلِّ هذا يعلمُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم أنَّ المومنَ مبتلىً، وعليه أن ينجوَ أولَ ما ينجو بدينه.

(إنَّ حبَّ الوطنِ غريزةٌ فُطِرَ عليها كلُّ مخلوق، ومفارقةُ الوطن تتركُ في النفس اضطراباً، والإنسانُ عندما يفارقُ وطنَه على أمل العودة يعلِّل نفسَه بسرعةِ الأيام، ويمنِّيها بأُنسِ اللقاء بعد الفراق، أمَّا إن لم يكنْ أملٌ في العودة، فإنَّ المهاجرَ يرى كلَّ شيءٍ بعين اليائس، ويسمعُ كلَّ لحنٍ بأذن الأصم، فهو لا يستلذُّ بعيشٍ، ولا يهنأ براحة، ولا يأنس بجليس.

ولعل هذا الشعور هو الذي خالطَ نفسَ بلال بن رباح رضي الله عنه بعد هجرته إلى المدينة، شعورٌ جاوز عالمَ الروح ليظهر مرضاً في عالم المادة.

ذكرتْ أمُّ المؤمنين عائشةَ رضي الله عنها أنه لما قدمَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المدينةَ وُعِك أبو بكر وبلال، قالت: فدخلتُ عليهما، فقلت: يا أبتِ كيف تجدُك؟ ويا بلال كيف تجدك؟.

قالت: فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول:

كُـــلُّ امـــرئٍ مُصـــبَّحٌ في أهلِـــه ... والموتُ أدنى من شِـــراك نعلِـــه

وكان بلال يقول:

ألا ليتَ شـــعري هـــل أبيتَنَّ ليلـــةً ... بـــوادٍ وحـــولي إذخِـــرٌ وجليـــلُ
وهـــل أرِدَن يومـــاً ميـــاهَ مَجَنَّـــةٍ ... وهـــل يَبـــدُونَ لي شـــامةٌ وطَفِيـــلُ

(مَجَنَّة: اسم سوقٍ كانت للعرب في مكة. شامةٌ وطفيلُ: جبلان في مكة).

قالتْ عائشةُ –رضي الله عنها-: فجئتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فأخبرتُه، فقال: «اللهمَّ حبِّبْ إلينا المدينة كحُبِّنا مكة أو أشد، وصححها، وبارك لنا في صاعها ومُدها، وانقل حمّاها فاجعلها بالجحفة». [مسند أحمد]

إنَّ حبَّ الوطن قد أدى ببلال أن يعود بخياله إلى مكة، وأن يشعر بحنين زائد إلى أحيائها التي تربى بينها، وقضى شبابه بين ربوعها، فتمنى أن يقضي فيها ولو ليلة، ويمتع ناظريه برؤية جبالها ونباتاتها).
[عن كتاب: الهجرة النبوية دراسة وتحليل، لمحمد السيد الوكيل]

ولكن أبا بكر وبلالاً وسائر الصحابة يعلمون أنَّ المؤمن مبتلىً وعليه أن ينجوَ أول ما ينجو بدينه.

وصورةٌ ثالثةٌ بطلُها صهيب الرومي رضي الله عنه:

أسلم صهيب ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دار الأرقم بعد بضعة وثلاثين رجلًا، وكان من المستضعفين بمكة المعذبين في الله عَزَّ وَجَلَّ، ولما هاجر صهيب إِلَى المدينة تبعه نفرٌ من المشركين، فنثل كنانته، وقال لهم: يا معشر قريش، تعلمون أني من أرماكم، والله لا تصلون إلي حتى أرميكم بكل سهمٍ معي، ثم أضربكم بسيفي ما بقي في يدي، منه شيء، فإن كنتم تريدون مالي دللتكم عليه، قَالُوا: فدلَّنا عَلَى مالك ونُخلِّي عنك، فتعاهدوا عَلَى ذلك، فدلهم عليه، ولحق برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال له رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ربح البيعُ أبا يحيى»، فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ، وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [البقرة: 207].

يعلمُ صهيب تمام العلم أنَّ المؤمن مبتلىً، وعليه أن ينجوَ أول ما ينجو بدينه.

أما الصورةُ الأخيرة فترويها عن نفسها وزوجها وولدها السيدةُ أم سلمة رضي الله عنها قالت:

لـمَّا أَجْمَعَ أَبُو سَلَمَةَ الْخُرُوجَ إِلَى الْمَدِينَةِ رَحَلَ لِي بَعِيرَهُ ثُمَّ حَمَلَنِي عَلَيْهِ، وَحَمَلَ مَعِي ابْنِي سَلَمَةَ بْنَ أَبِي سَلَمَةَ فِي حِجْرِي، ثُمَّ خَرَجَ بِي يَقُودُ بِي بَعِيرَهُ، فَلَمَّا رَأَتْهُ أصهاره بنو المغيرة، قَالُوا: هَذِهِ نَفْسُكَ غَلَبْتَنَا عَلَيْهَا، أَرَأَيْتَ صَاحِبَتَكَ هَذِهِ؟ عَلَامَ نَتْرُكُكَ تَسِيرُ بِهَا فِي الْبِلَادِ؟ قَالَتْ: فَنَزَعُوا خِطَامَ الْبَعِيرِ مِنْ يَدِهِ، فَأَخَذُونِي مِنْهُ. قَالَتْ: وَغَضِبَ عِنْدَ ذَلِكَ بَنُو عَبْدِ الْأَسَدِ، رَهْطُ أَبِي سَلَمَةَ، فَقَالُوا: لَا وَاللَّهِ، لَا نَتْرُكُ ابْنَنَا عِنْدَهَا إِذْ نَزَعْتُمُوهَا مِنْ صَاحِبِنَا.

قَالَتْ: فَتَجَاذَبُوا بَنِي سَلِمَةَ بَيْنَهُمْ حَتَّى خَلَعُوا يَدَهُ، وَانْطَلَقَ بِهِ بَنُو عَبْدِ الْأَسَدِ، وَحَبَسَنِي بَنُو الْمُغِيرَةِ عِنْدَهُمْ، وَانْطَلَقَ زَوْجِي أَبُو سَلَمَةَ إِلَى الْمَدِينَةِ. قَالَتْ: فَفَرَّقَ بَيْنِي وَبَيْنَ زَوْجِي وَبَيْنَ ابْنِي.

قَالَتْ: فَكُنْتُ أَخْرُجُ كُلَّ غَدَاةٍ فَأَجْلِسُ بِالْأَبْطَحِ، فَمَا أَزَالُ أَبْكِي، حَتَّى أَمْسَى سَنَةً أَوْ قَرِيبًا مِنْهَا حَتَّى مَرَّ بِي رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَمِّي، أَحَدُ بَنِي الْمُغِيرَةِ، فَرَأَى مَا بِي فَرَحِمَنِي فَقَالَ لِبَنِي الْمُغِيرَةِ: أَلَا تُخْرِجُونَ هَذِهِ الْمِسْكِينَةَ، فَرَّقْتُمْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ زَوْجِهَا وَبَيْنَ وَلَدِهَا! قَالَتْ: فَقَالُوا لِي: الْحَقِي بِزَوْجِكَ إِنْ شِئْتِ. قَالَتْ: وَرَدَّ بَنُو عَبْدِ الْأَسَدِ إِلَيَّ عِنْدَ ذَلِكَ ابْنِي. قَالَتْ: فَارْتَحَلْتُ بَعِيرِي ثُمَّ أَخَذْتُ ابْنِي فَوَضَعْتُهُ فِي

حِجْرِي، ثُمَّ خَرَجْتُ أُرِيدُ زَوْجِي بِالْمَدِينَةِ. قَالَتْ: وَمَا مَعِي أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ. قَالَتْ: فَقُلْتُ: أَتَبَلَّغُ بِمَنْ لَقِيتُ حَتَّى أَقْدَمَ عَلَيَّ زَوْجِي، حَتَّى إِذَا كُنْتُ بِالتَّنْعِيمِ لَقِيتُ عُثْمَانَ بْنَ طَلْحَةَ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ، فَقَالَ لِي: إِلَى أَيْنَ يَا بِنْتَ أَبِي أُمَيَّةَ؟ قَالَتْ: فَقُلْتُ: أُرِيدُ زَوْجِي بِالْمَدِينَةِ. قَالَ:

أَوَمَا مَعَكَ أَحَدٌ؟ قَالَتْ: فَقُلْتُ: لَا وَاللَّهِ، إِلَّا اللَّهُ وَبُنَيَّ هَذَا. قَالَ: وَاللَّهِ مَا لَكَ مِنْ مَتْرُكٍ، فَأَخَذَ بِخِطَامِ الْبَعِيرِ، فَانْطَلَقَ مَعِي يهوى بي، فوالله مَا صَحِبْتُ رَجُلًا مِنْ الْعَرَبِ قَطُّ، أَرَى أَنَّهُ كَانَ أَكْرَمَ مِنْهُ، كَانَ إِذَا بَلَغَ الْمَنْزِلَ أَنَاخَ بِي، ثُمَّ اسْتَأْخَرَ عَنِّي، حَتَّى إِذَا نَزَلْتُ اسْتَأْخَرَ بِبَعِيرِي، فَحَطَّ عَنْهُ، ثُمَّ قَيَّدَهُ فِي الشَّجَرَةِ، ثُمَّ تَنَحَّى (عَنِّي) إِلَى شَجَرَةٍ، فَاضْطَجَعَ تَحْتَهَا، فَإِذَا دَنَا الرَّوَاحُ، قَامَ إِلَى بَعِيرِي فَقَدَّمَهُ فَرَحَلَهُ، ثُمَّ اسْتَأْخَرَ عَنِّي، وَقَالَ: ارْكَبِي. فَإِذَا رَكِبْتُ وَاسْتَوَيْتُ عَلَى بَعِيرِي أَتَى فَأَخَذَ بِخِطَامِهِ، فَقَادَهُ، حَتَّى يَنْزِلَ بِي. فَلَمْ يَزَلْ يَصْنَعُ ذَلِكَ بِي حَتَّى أَقْدَمَنِي الْمَدِينَةَ، وقَالَ: زَوْجُكَ فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ فَادْخُلِيهَا عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ، ثُمَّ انْصَرَفَ رَاجِعًا إِلَى مَكَّةَ.

قَالَ: فَكَانَتْ تَقُولُ: وَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ أَهْلَ بَيْتٍ فِي الْإِسْلَامِ أَصَابَهُمْ مَا أَصَابَ آلَ أَبِي سَلَمَةَ، وَمَا رَأَيْتُ صَاحِبًا قَطُّ كَانَ أَكْرَمَ مِنْ عُثْمَانَ بْنِ طَلْحَةَ.

لقد كانت السيدةُ أم سلمة وزوجها تعلم أنَّ المؤمن مبتلىً وعليه أن ينجو أول ما ينجو بدينه.

أيها الإخوة:

ما نزل بلاءٌ بعبدٍ مؤمنٍ إلا وذكر أنَّ الابتلاء سنة الله في أرضه، وأن الله جاعلٌ من بعدِ الضيقِ الفرجَ، ومِن بعد العُسر يُسراً.

وما نزل بلاءٌ بعبدٍ مؤمنٍ إلا اجتهد أن يَلزم التقوى في عُسره كما التزمها في يسره، وتذكر قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: 90].

وما نزلَ بلاءٌ بعبدٍ مؤمنٍ إلا واسى نفسَه برسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام.

نسأل الله تعالى أن يُعجِّلَ لنا بالفرج وأن يجعله محفوفاً بلطفه.

والحمد لله رب العالمين